مدرسة الإسكندرية

تتبع انتشار المسيحية في عصورها الأولى من خلال العملات المعدنية

د. عادل زكري

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد التاسع - ٢٠١١

مجلة مدرسة الإسكندرية
عدد ٩

تتبع انتشار المسيحية في عصورها الأولى
من خلال العملات المعندية

ترجمة: د. عادل زكري

مدرسة الإسكندرية

تتبع انتشار المسيحية
في عصورها الأولى من خلال العملات المعدنية

ستانلي إيه. هدسون
ترجمة: د. عادل زكري
adel_zekry@alexandriaschool.org

كان لبعض الأحداث في التاريخ البشري نفس التأثير على الحضارة الغربيّة مثلما كان لتحوُّل الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى المسيحيّة. إنّ الشخصيّة الرئيسة المسؤولة عن إحداث هذا التغيُّر الدراماتيكي هي الإمبراطور الروماني "فلافيوس فالريوس كونستانتينوس"، والمعروف بقسطنطين الكبير ـ والذي حكم في الفترة ما بين ٣٠٧ ـ ٣٣٧م.

مصدرنا الأساسي الذي نستقي منه الحقائق الخاصّة بقسطنطين يتمثل في سيرة ذاتيّة كتبها يوسابيوس ـ أسقف قيصريّة بفلسطين. حيث كتب يوسابيوس وهو معاصر لقسطنطين مؤلّفه "حياة قسطنطين" vita constantini كمرثاة قصيرة له بعد وفاته. كما قدَّم "لاكتانتيوس" بعض الحقائق الإضافيّة وهو مدافعٌ مسيحيٌّ معاصرٌ في ذلك الوقت.

وبناءً على هذه المصادر، تحوَّل قسطنطين من عبادة الشمس إلى الإيمان المسيحي في زمن معركة جسر "موليفان" في ٢٨ أكتوبر سنة ٣١٢م. حين تنافس "ماكستيوس" خصم قسطنطين السياسي معه على حكم روما بجيش قوامه مائة ألف جندي. فطلب قسطنطين عون الآلهة لأن جيشه كان قوامه أربعين ألف جندي فقط. وقد وضح كلٌّ من يوسابيوس ولاكتانتيوس لماذا استجابت السماء لصلوات قسطنطين، بالرغم من وجود اختلاف في تفاصيل رواية كلٍّ منهما. حيث رأى قسطنطين ـ سواء في حلم أو رؤيا ـ علامة خاصة

بالمسيحيّين ـ صليبًا أو علامةً "كاي رو".[1] وظهرت مع العلامة (أو سُمِعَ صوتٌ يقول) بكلمات لاتينيّة "Hoc signa victor eris" والتي تُترجَم "بهذه العلامة تغلب". ويُروَى عن قسطنطين أنّه سمع صوتًا يخبره أن يضع هذه العلامة على درعه ودروع جنوده. وبمقتضَى الظهور المتكرِّر لعلامة "كاي رو" على عملاته، فمن المحتمل أنّ يكون قسطنطين قد رسم على درعه ودروع جنوده الحروف اليونانية "كاي رو" chi-rho.

هذه العلامة والتي تُدعَى christogram تحتوي على الحرفيْن الأوليْن من كلمة المسيح باليونانيّة (XP). هذه العلامة التي تشبه الصليب كانت علامة قديمة للمسيحيّة ترجع إلى القرن الأوّل الميلادي.

وبعدما أطاع قسطنطين ورسم هذه العلامة على خوذته ودرعه، وكذلك كلّ قواته، فاز بنصرٍ ساحقٍ. وعلى الفور جعل قسطنطين إله المسيحيّين الإله الراعي للمملكة.

وفي العام التالي (٣١٣م) ألغَى قسطنطين مرسوم سلفه دقلديانوس الذي كان يدعو إلى اضطهاد المسيحيّين. وبالتالي اُعتُبِرَت المسيحيّة ديانةً رسميّةً في الإمبراطورية المسيحية.

وكنّا نتوقّع أن يكون انتصار قسطنطين في معركة جسر "مولفيان" ذا تأثير واضح على العملات الرومانية. إنّ العملات الرومانيّة مثلها مثل العملات الأقدم منها أو الأحدث، تخبرنا الكثير عن المجتمع الذي قام بصكّ هذه العملة. فمنذ اختراع فكرة العملة على يدّ مملكة "ليديا" في القرن السابع قبل الميلاد، ويُنْظَر إلى العملات على أنها أكثر من وسيلة للمقايضة. فكانت تستخدم في كثير من الأحيان لتُقدِّم رسالةً مختصرةً عن الدولة.

كذلك أدركت الحكومات (في القديم) أهمية الفرصة التي تمنحها العملات لتقديم صورة ما أو نشر فكرة ما. فقد ظهرت على العملات إشارات

[1] عرف فيما بعد بصليب القسطنطينة أو صليب قسطنطين. (المترجم)

عن حملات عسكريّة، وأخبار اقتصاديّة، وتغييرات في الحكومة، وموضوعات دينيّة، ومجموعة كبيرة من الموضوعات الأخرى.

وقبل تحول قسطنطين إلى المسيحية في عام ٣١٢م صوَّرت العملات الرومانيّة ما يقرب من ٢٧ نوعًا من الآلهة المعروفة في ذلك الوقت، باستثناء نظرائها اليونانية. فضلاً عن ٣٤ تشخيصًا وتصويرًا على الأقل لفضائل خاصّة بالآلهة - وصور مجازيّة عن "العدل" و"الانتصار" - وبالنظر إلى العملات الرومانيّة سرعان ما يتولّد لديك انطباع عن أهمية الديانة في ذلك المجتمع. كان الناس يؤلّهون الأباطرة وبالتالي كانوا يصوّرونهم على العملات كآلهة.

أمّا من ناحية الديانات، فكانت روما بمثابة إسفنجة تمتصُّ في داخلها آلهة ومعتقدات العديد من الشعوب، خاصة آلهة الشعوب التي هزمتها روما في الحروب، وفي كثيرٍ من الأوقات كانت النتيجة مزيجاً من الأديان والشعائر الدينيّة المختلفة. وكان من المعتاد أن يقرّ الإمبراطور صكّ العملة ويصوِّر عليها أحد الآلهة المفضّلة لديه. على سبيل المثال: الإمبراطور كومودوس (الذي حكم في الفترة ما بين ١٧٧ إلى ١٩٢م) كان يُفضِّل الإله هرقل، والإمبراطور دوميتيان (الذي حكم في الفترة ما بين ٨١ إلى ٩٥م) كان يُفضِّل الإلهة مينرفا، آلهة الحكمة.

كانت مسألة تصوير أحد الآلهة على العملة مدفوعة أحيانًا برغبة في إظهار بعض التقدير بعد الحصول على نوع من البركات. أو في أحيان أخرى كانت سعيًا نحو الحصول على البركات. أو ربما كانت ببساطة محاولة لإثارة اهتمام الناس وحثّهم نحو عبادة أحد الآلهة.

حتى قبل إيمان قسطنطين بالمسيح، أبدى بعض الأباطرة تعاطفاً نحو المسيحية. من بين هؤلاء الأباطرة: فيليب الأول (حكم بين ٢٢٤ - ٢٤٩م) ووالد الإمبراطور قسطنطين، والإمبراطور كونستانتيوس الأوّل (حكم ما بين ٣٠٥-٣٠٦م). وفي إحدى المرّات ذاع خبر إيمان إحدى زوجات الإمبراطور، وكانت تُدعى "سالونينا" وكانت زوجة الإمبراطور جالينيوس (الذي حكم ما بين ٢٥٤ -

٢٦٨م). لكن العملات الرومانيّة لم تُصوِّر هذه الأمور المُتعلِّقة بالمسيحيّة أو حتى صدَّقت عليها.

كان العيش كشاب مسيحي في نيقوميديا بآسيا الصغرى ـ وهي منطقة مكتظة بالمسيحيين في الإمبراطورية، وهي مسقط رأس الأسقف لوسيان وقسطنطين وعائلته ـ أمرًا مألوفًا للمسيحيّة دون أدنى شك. وهناك، ربما شاهد قسطنطين اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين، والذي بدأ عام ٣٠٣م. وربما أصبح قسطنطين متعاطفًا مع المسيحيين بسبب الاضطهاد الذي كانوا يعانون منه. على أيّة حال، بعد ذلك في بريطانيا لم ينفِّذ قسطنطين أو أبوه ما ورد في مرسوم دقلديانوس ضدّ المسيحيين باستثناء إغلاق كنائسهم في بعض الأحيان. فلم يُجبِرا المسيحيين في عهدهما على عبادة الآلهة الوثنيّة، ولم يعاني المسيحيون من السجن أو التعذيب أو الموت في عهدهما.

قبل إيمان قسطنطين بالمسيح عام ٣١٢م كانت العملات تصور أحداثًا عسكريّة بشكلٍ عام. على سبيل المثال: مشهد من المعركة أو الجنود أو الحصون. ومن المؤكَّد أنّ انتصار قسطنطين في معركة جسر موليفان بمساعدة إله المسيحيّين الذي في السماء، لابد وأن تم تخليده بإعطاء الإكرام اللاّئق بإله المسيحيين. خاصة وإن كان النمط السائد لدى قسطنطين هو تصوير الأحداث العسكريّة على عملاته. لكن قسطنطين لم يُخلِّد أبدًا انتصاره في معركة جسر موليفان على أيّة عملة من عملاته.

في الواقع، لم يطرأ أي تغيير على العملات الرومانيّة بعد إيمان قسطنطين بالمسيحيّة. واقتصر قسطنطين على تصوير أحداث حربيّة على عملاته.

ومع ذلك، حدث تغيُّر تدريجي، فقد قلَّت العملات التي تحمل صورًا لآلهة وثنية شيئًا فشيئًا. فلقد اختفَى سريعًا الإله "مارس" إله الحرب من على العملات. كما اختفى أيضًا الإله "جوبيتر" الذي كرَّمه قسطنطين سابقًا لأسباب سياسيّة (كان جوبيتر المفضل لدى دقلديانوس).

وبهذه الطريقة بدأت الصور الوثنيّة في الاضمحلال تدريجيًّا ـ وهذا ينطبق على كل الآلهة الوثنيّة باستثناء إلهٍ واحدٍ. فقبل إيمان قسطنطين بالمسيحيّة كان الإله المُفضّل لديه هو "سول" إله الشمس كما نرى من خلال عملاته. وكانت أكثر هذه العملات التي تُظْهِر الإله سول من البرونز وقيمتها فِلس واحد. ويظهر فيها الإله "سول" واقفًا، ونقشٌ يتضمّن إهداء يقول "إلى الشمس التي لا تقهر" Soli Invicto comiti ومن المحتمل أن يكون قسطنطين قام بصكّ مئات الآلاف من العملات للإله "سول" بعد إيمانه بالمسيحية. وفي العشر سنوات التالية لانتصار معركة جسر موليفان كانت العملات تُصوِّر الإله "سول" بما في ذلك العملات الذهبيّة التي كانت تهتم بشكلٍ خاصٍ بالإمبراطور.

ولهذا فإذا كانت هذه العملات تعكس المعتقدات الدينيّة الخاصّة بالإمبراطور بشكلٍ عامٍ، فربما كان تحوُّل قسطنطين إلى المسيحيّة تحوُّلاً تدريجيًّا. كما كان تحوُّل الإمبراطوريّة الرومانيّة بالكامل تحوّلاً تدريجيًّا يتميّز بالصراع المتكرِّر مع الوثنيّة والإيمان بالخرافات.

ولكن هناك احتمال آخر يجب أن يُوضع في الاعتبار. هل كان قسطنطين أو رعايا المملكة الرومانيّة يخلطون بين الإله "سول" إله الشمس من ناحية والمسيح من ناحيةٍ أخرى؟

هل كان الاثنان مرتبطيْن بشكلٍ ما في الامبراطورية الرومانيّة في أوائل انتشار المسيحيّة؟ هل كانت هناك نفس الطريقة المتّبعة للتوفيق بين المعتقدات، والتي من خلالها استوعب الهيكل الروماني بداخله، الهيكل اليوناني أيضًا، واضعًا أسماء لاتينيّة للآلهة اليونانيّة؟ وحتى في عصورٍ سابقة، فالآلهة المصريّة الفرعونيّة والكنعانيّة والأوغاريتيّة وآلهة أخرى انتقلت من ثقافة إلى ثقافة أخرى، وأحيانًا بنفس الاسم، وأحيانًا أخرى أصبح لها أسماء مختلفة. وقد اختلطت سِمات الآلهة وصفاتها المميّزة معًا ثم انفصلت مرة أخرى. هل حدث شيءٌ مُشابه عندما أصبح الرومانيّون مسيحيّين؟

إن تأثير[٢] الإله سول على المسيحيّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة في بدايتها لا يقتصر على الظهور في العملات فقط. في منتصف الخمسينيّات من القرن العشرين، كشفت أعمال التنقيب تحت كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان عن سطح من الفسيفساء لكنيسة صغيرة ترجع إلى ما قبل عام ٢٤٠م. يُصوِّر الفسيفساء، المسيح، كإله للشمس، يتحرّك في مركبةٍ عبر السماء. كما أثّرت عبادة الشمس أيضًا على تحديد موعد الاحتفال بميلاد المسيح. كان يوم ٢٥ ديسيمبر "عيد ميلاد الشمس التى لا تُقْهَر". ومن هنا نرى أنه حتى الكنيسة عملت على التكيف في مجتمع الإمبراطوريّة الرومانيّة الذي يسمح بتعدُّد الآلهة فيها.

بعد ثلاث سنوات من انتصار قسطنطين في معركة جسر موليفان ٣١٥م، يهدي السيناتور الروماني، قوس انتصارٍ من أجل هذا النّصر لإله غامض يُسمَّى INSTINCTU DIVINITATIS أي "الإلهام الإلهي". ويشعُر "رامسي ماك مولين"، على الأقل، كأحد المؤرخين الذين كتبوا عن السيرة الذاتيّة لقسطنطين أنّ هذا اللّقب يشير إلى الإله "سول". كما أنّ هذا التعبير لم يضايق أيًّا من عابدي الإله سول إله الشمس أو المسيحيّين.

تمّ صك أحد الأشكال النادرة لعملات الإله سول (إله الشمس الذي لا يُقهر) في مدينة "تيسينم" Ticinum (الآن "مدينة بافيا" في شمال إيطاليا). وربّما تشير هذه العملة إلى أنّ عبادة الإله "سول" قد اختلطت أحيانًا [أو بالأحرى جاورت] بعبادة يسوع المسيح. تضمّنت هذه العملة صليبًا في المساحة الخالية خلف صورة الإله سول. وتمّ العمل بهذه العملة عام ٣١٦م. وبالتالي هي أوّل عملة تحمل رمزًا مسيحيًّا صريحًا. وقد وُضِع الصليب على هذه العملة تقريبًا في المكان المُخصَّص للعلامة الخاصّة بالورشة التى قامت بصك العملة داخل مصنع صك العملات. بحيث إذا ما صُكّت عملة رديئة يمكن الرجوع إلى علامة الورشة

---

[٢] إنّ التأثير المذكور هنا معني بالأساس بمحاولة "تعميد" ثقافيّة لكلّ أشكال ومناحي الحياة المجتمعيّة بأبعادها، إن كان يتّفق مع روح الكتاب والدعوّة المسيحيّة، فكون المسيح «شمس البر»، جعل من اليسير اقتباس رمزيّة الشمس للتعبير من خلالها عن المسيح بأشكالٍ فنيّة وثقافيّة متعدّدة. (إدراة التحرير بالمجلّة).

"officina". ومن الواضح جدًّا أنها صُكّت بمصنع صك العملات بمدينة تيسينم عام ٣١٦م، وكانت هناك ورشة لصك العملة يعمل بها على الأقل مسيحي واحد غيور. وبوضع علامة الصليب في المكان خلف الإله سول على العملة، ربما كان يعني هذا وقتها أن يسوع أعظم من الإله "سول". وربما على الأرجح، كان خلطًا بين إله المسيحيّين والإله "سول" إله الشمس.

ومع ذلك، ربّما أهم شيء يذكر عن هذه العملة، هو ندرتها خاصة عندما نقارنها بعملات الإله "سول" الشائعة بشكلٍ كبيرٍ. تذكر أشهر المراجع الخاصّة بالعملات نوعيْن أو ثلاثة أنواع فقط من العملات خاصّة بالإله "سول" إله الشمس الذي لا يُقهر، وتحتوي في نفس الوقت على علامة الصليب. فواقعيًا ربّما كان هناك أكثر من هذه العملة.

ولهذا فإنّه بالرّغم من إيمان قسطنطين بالمسيحيّة عام ٣١٢م فإنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة حتى عام ٣١٦م أخفقت في صك عملة لها طابع مسيحي.

مثالٌ آخرٌ لعملة ذات تصميم وثني مع إضافة علامة الصليب ـ وهو شيء نادر جدًّا، تم صكها بمدينة "تيسينم" في الفترة ما بين ٣١٨ ـ ٣١٩م. حيث يظهر على ظهر العملة انتصاريْن على جانب المذبح. والنقش يُترْجَم "من أجل النصر الموفّق للإمبراطور قسطنطين الخالد". ولهذا فإن هذه العملة صُكّت لإحياء ذكرى الانتصارات العسكريّة لقسطنطين. العملة في حد ذاتها شائعة جدًّا، وأمّا سبب نُدرتها فهو علامة الصليب المرسوم على واجهة المذبح. ولا تزال أنواع مختلفة أخرى من هذه العملة موجودة حتى الآن، ويحتوي البعض منها صليبًا على درع الإمبراطور قسطنطين.

هناك نوعان آخران من العملات يُصوِّران رموزًا مسيحيّة بالإضافة إلى عملات لها طابع وثني تم صكّها بواسطة قسطنطين.

إحدى هذه العملات، والتي انتشرت بعد ذلك على نطاق واسع. وهي تظهر الإمبراطور (على ظهر العملة) يحمل راية حربيّة تُسمَّى labarum بالإضافة إلى

علامة الصليب. تم صك هذه العملة حوالي عام ٣٣٦م في مدينة Arelate (هي مدينة "أرل" بفرنسا الآن) وكانت بمثابة تكريم للجيش.

هذه العملة نفسها تمّ صكّها على الفور من أجل أبناء قسطنطين الثلاثة: قسطنطين الثاني، وكونستانتيوس الثاني وكونستانتس، ومن أجل ابن أخيه دلماتيوس.

هناك عملة أخرى تُخلِّد تأسيس روما يَظْهَر فيها روميليوس وريميوس (المؤسِّسان الأسطوريّان لروما) واللذان أرضعتهما أنثى الذئب. وفي بعض العملات النادرة يوضع صليب بدلاً من أحد النجوم. هل يعتبر هذا إشارة إلى أنّ المسيح له علاقة بتأسيس روما (أو إعادة بنائها)؟

ومع ذلك، فكلّ الأمثلة المعروفة للعملات الخاصّة بقسطنطين وبها رموز مسيحيّة لا تملأ حِفنة واحدة بالرغم من الأعداد المهولة للعملات التي صكّها هذا الإمبراطور. يقدِّر بعض الدارسين أن قسطنطين قام بصك عشرات الملايين من العملات. وفي كلّ مرّة تقريبًا عندما تحتوي العملة رمزًا مسيحيًّا يكون الرمز شيئًا عَرَضيًّا للتصميم العام للعملة، وظهورها على الأرجح يرجع إلى مسيحي غيور ممّن يعملون بصك العملة، وليس قسطنطين.

لماذا لم يقم قسطنطين بصك عملات مسيحيّة أكثر؟ ربما كان إيمانه تدريجيًّا كما أشرت سابقًا، أو ربما كان ببساطة، حريصًا ومُظْهِرًا فِطنة السياسي المُحنّك. أو ربما مجموعة من الأسباب كانت وراء موقفه هذا.

كذلك هناك عملة صغيرة صُكّت على نطاقٍ واسعٍ وقت وفاة قسطنطين عام ٣٣٧م تُظْهِر الإمبراطور على عَجَلة حربيّة مرتفعًا ليلمس يدّ أحد الآلهة في السماء. هل كان يرفع يده نحو إله المسيحيّين، أم الإله "سول"؟ أو ربما كليهما؟ يُعلِّق يوسابيوس على هذه العملة قائلاً: "على أحد وجهي العملة ظهرت شخصيّة أميرنا المُبَارك مُقنّعًا تقريبًا، وعلى ظهر العملة يظهر جالسًا يقود مركبته الحربيّة التي تجرّها أربعة خيول، وتظهر يدٌ نازلةٌ من فوق لتستقبله إلى السماء".

أغفل يوسابيوس ذِكر أنّ الكتابة على وجه العملة تبدأ بعبارة DV Constantinus أو "قسطنطين ذو الطبيعة الإلهيّة". ولهذا صُوِّر قسطنطين متألِّهًا. وإذا ما أعتبرنا تعليقات يوسابيوس ممثلة عن الكنيسة بشكلٍ عامٍ، فمن ثمّ يبدو أن المسيحيّين كانوا ممتنّين وشاكرين لقسطنطين من أجل انهائه اضطهادهم، وكانوا متردّدين في قول أي شيء قد يعيد هذا الاضطهاد مرّة أخرى.

من المثير للدهشة حقًّا، أنّ أوّل عملة صُكّت وكانت تحمل رموزًا مسيحيّة واضحة لم يتمّ صكّها في روما. هذا الشرف يذهب إلى مملكة الحبشة، أثيوبيا الآن. فالملك الحبشي "إزاناس" أو "عيزانا" اعتنق المسيحيّة في بداية القرن الرابع الميلادي. وفي عام ٣٣٠م تقريبًا بدأ في صكّ العملات، واضعًا عَلامة الصّليب في منتصف ظهر العُملة. إحدى هذه العملات، وهي عملة فضيّة صغيرة مميّزة، مُطعّمة بالذهب في منتصف الصليب! هذه العملات الحبشيّة نادرة، ولكنها على خلاف العملات الرومانيّة التي تحمل رموزًا مسيحيّة، تُظْهِر العملات الحبشيّة الطابع الديني بلا غموضٍ أو التباسٍ، وتُظْهِر الرمز المسيحي كموضوعٍ أساسيٍّ للنقوش الموجودة على العملة.

صكّ أبناء قسطنطين أولى العملات الرومانيّة التي تحمل رموزًا مسيحيّة، بحيث كانت جزءًا من التصميم الأساسي للعملات حتى وإن كان جزءًا صغيرًا. كانت التصميمات الفنيّة للعملات (لاتزال) لها طابع حربي أو عسكري، وتُظْهِر الأمبراطور ظافرًا يحمل راية يظهر عليها الصليب المعروف بصليب القسطنطينيّة. وأحيانًا يكون الصليب غير مرسوم بشكلٍ صحيحٍ كما نعرفه اليوم. ويعتقد بعض الدارسين أنّ هذا الشكل كان خليطًا من صليب القسطنطينيّة والصليب العادي، وأطلقوا على هذه العلامة crossogram.

بعد ذلك، تعَّمد الرسّامون المزج بين العلامتيْن ليكوِّنوا هذا الرمز. ومع ذلك أعتقد أنّ هؤلاء الرسّامين الذين عملوا في أربعينيّات القرن الرابع (٣٤٠م) لم يكونوا على دراية بهذا الرمز الخاصّ بالديانة الجديدة للإمبراطوريّة

الرومانيّة. تقول الكتابة: fel. Tem. reparatio ومعناها "لترجع الأوقات السعيدة". لهذا فإنّ هذا التصميم الفنّي يحمل إشارة الرجاء أو الصلاة بأنْ تُعيد المسيحيّة للإمبراطوريّة المجد الذي كان لها في عصورها السابقة.

عملة أخرى في هذه الحقبة تُظْهِر الصراعات المستمرّة بين المسيحيّة والوثنيّة. يُظْهِر ظهر العملة الإمبراطور واقفًا على إحدى سفن أسطول المملكة، ظافرًا عند دفّة السفينة. يُمْسِك الإمبراطور، بإحدى يديه، رايةً تحمل رمزًا مسيحيًّا، وعلى يده الأخرى يقف طائر الفوينكس (العنقاء)، وهو طائر خرافي يموت كلّ ٥٠٠ عام، ليقوم مرّة أخرى من الرّماد إلى حياةٍ جديدةٍ. من الواضح أن خرافة طائر العنقاء تقابل [حقيقة] القيامة في المسيحيّة، ولكن أوجه التشابه في الخرافة (وهي مصرية المنشأ) ربما تكون قد أزعجت مشاعر المسيحيّين.

على أيّة حال، هناك أشكال مختلفة شائعة من هذه العملة تُصوِّر انتصارًا صغيرًا بدلاً من طائر العنقاء. هذا التكرار الزائد للانتصار في التصميم الفنّي يشير إلى أنّ الانتصار الثاني وُضْعَ كبديلٍ عن طائر العنقاء، مصدر الإزعاج.

وكما رأينا سابقًا، فإنّ قسطنطين أغفل صكّ أي عملة كنا نتوقّعها منه بعد انتصاره في معركة جسر موليفان. وهي عملة يظهر فيها حاملاً راية تحمل الصليب المعروف بصليب قسطنطين. ومع ذلك فأحد أبنائه قام بصكّ عملة حربيّة بهذه المواصفات. في عام ٣٥٠م قام كونستانتيوس الثاني بصكّ عملة برونزيّة لعملة حربيّة شائعة تُظْهِر الإمبراطور قسطنطين حاملاً رايةً. وهنا تحتوي الرّاية على علامة الصليب.

وبمرور الوقت تدريجيًّا أصبحت العملات التي تحمل رموزًا مسيحيّة شائعةً بدرجةٍ أكبر. في عام ٣٥٠م قام كلٌّ من الأخوين؛ الإمبراطور ماجنينتيوس والإمبراطور ديسينتيوس، اللّذين كانا لفترةٍ وجيزةٍ منافسيْن للإمبراطور قسطانطيوس الثاني (واللّذين قتلا الإمبراطور قسطانس) بصكّ عملات برونزيّة على ظهرها علامة صليب كبيرة.

وعلى جانبي علامة الصليب كُتِبَ الحرفان؛ الألفا والأوميجا من الأحرف اليونانيّة. وهما الحرفان الأول والأخير في الأبجديّة اليونانيّة. وهذا يشير بوضوح إلى المسيح كما ورد في سفر الرؤيا: «أنا الألف والياء. البداية والنهاية. الأوّل والأخر» (رؤيا ١٣: ٢٢، انظر أيضًا رؤيا ٨ :١، ٢١: ٦).

ومع الأسف، فعملات ماجنينيستوس وديسينتوس تمّ صكّها على نطاقٍ محدود. وكانت تظهر عليها نقوش غير واضحة على الحافّة الخارجيّة للعُملات. لاشكّ أنها صُكّت بتعجُّلٍ كجزءٍ من جهود للعلاقات العامة في خضمّ مبارزة سياسيّة مع الإمبراطور قسطانطيوس الثاني. الكتابة على ما تبدو تقول salus ddnn Augetcaes وهي اختصار لعبارة معناها "الخلاص لآلهتنا أغسطس وقيصر". ومع ذلك فهذه الصلاة من أجل خلاص وأمان الأخويْن لم تُجْدِ شيئًا. فقد تمّت هزيمتهما هزيمةً نكراء على يدّ قسطانطيوس الثاني الذي أنتج عملات مشابهة. وهذا أمرٌ يدعو للدّهشة. إنْ العملتيْن اللتين صنعهما الأخوان ماجنينتيوس وديسينتيوس وقسطانطيوس الثاني والتي تمّ صكّهما حوالي ٣٥٠م هما أولى العملات المسيحيّة الصريحة وتمّ صكّهما في روما.

وخلال النصف الثاني من القرن الرابع صوّرت العملات علامة الصليب بشكل متزايد. وفي بدايات هذه الفترة كان الصليب المعروف بصليب قسطنطين هو الأكثر شيوعًا. وفي نهاية القرن الرابع احتلّت علامة الصليب المعروفة، الصدارة في الانتشار. واستمرّ استخدامها في العملات التالية.

وبعد سقوط روما والإمبراطوريّة الأوربيّة استمرّت الإمبراطوريّة الشرقيّة أو البيزنطيّة في تطوير فنْ العملات لقرون عديدة. وفي فترة حكم جوستين الأوّل (الذي حكم من ٥١٨ إلى ٥٢٧م) تمّ استبدال الشخصية الأنثويّة المُعبِّرة عن النصر، بملاكٍ على شكل ذكر كرمز أكثر ملاءمة للعملات المسيحيّة.

وفي فترة حكم جوستنيان الثاني (٦٨٥ ـ ٦٩٥م) صوَّر الرسّامون لأوّل مرّة السيّد المسيح على العملات. وهذا التطوُّر ربما تأخّر حتى هذا التاريخ بسبب المعارضة لفكرة الأيقونات، حيث كانت بعض العناصر من داخل الكنيسة

تُعارض الصور على أساس أنها تتعارض مع الوصيّة الثانية من الوصايا العشر: «لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا ولا صورة ما»

وفي نهاية القرن العاشر وصلت الرمزيّة المسيحيّة أوج عصورها. فالعملات البرونزيّة لم تَعُد تحمل أي إشارة إلى الإمبراطور ـ وإنّما للمسيح فقط. تصوِّر العملات السيد المسيح على ظهر العملة حاملاً كتاب البشائر ورافعًا يده اليمنَى بسلطانٍ، وبشكلٍ عام يتضمّن ظهر العُملة كتابة يونانيّة ترجمتها "يسوع المسيح ملك الملوك".

وبالتالي انقلب حال الرمزيّة المسيحيّة رأسًا على عقب من بداية ضعيفة في عهد قسطنطين حيث كنا نجد صعوبة بالغة في معرفة الميول الدينيّة الخاصّة بشخص الإمبراطور، إلى الأباطرة البيزنطيّين الأواخر الذين محوا أي ذكرٍ لأنفسهم تبجيلاً وإكرامًا لإله المسيحيّين.

الفنان الذي رسم لوحة "معركة جسر موليفان"[٣]

جوليو رومانو (١٤٩٩ ـ ١٥٤٦م) كان كبير المساعدين للمُعلِّم الإيطالي العظيم رافاييل (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠م). وقد تمّ استدعاء رافاييل إلى روما من قِبَل البابا يوليوس الثاني عام ١٥٠٨م ليساعده في إعادة تزيين الغرف التابعة للمقر البابوي في الفاتيكان. شَهَدَ هذا الوقت ازدهارًا فنيًّا في روما. وكان البابا يوليوس قد هدم كاتدرائيّة القديس بطرس القديمة وأعاد بناءها مرّة أخرى. وقد صمّم مُلْحَقًا واسعًا لقصر الفاتيكان وقاعة محكمة ضخمة. وقد أوكل البابا يوليوس لرافاييل تزيين هذا المُلحق والقّاعة بشكلٍ يحاكي الأباطرة الرومانيين القدامَى.

[٣] بقلم: بيفيرلي لويس براون

وكان مايكل أنجلو يعمل في نفس الوقت في سقف كنيسة "سستين". وعندما وصل رافاييل، كان عمره ٢٦عامًا. وربما كان ذلك بطلب من "دوناتو برامانتي" المهندس العظيم الذي بنَى كاتدرائيّة القديس بطرس الجديدة.

كان البابا يوليوس الثاني راضيًا تمامًا عن النتائج الأوليّة لرافاييل حتى إنّه قرر أن يطمس أعمال الفنانين الآخرين من المقرّ البابوي ـ ما عدا سقفًا رسمه "بيروجينو" مُعلّم رافاييل.

وفي النهاية أعطَى البابا يوليوس الثاني وخليفته البابا ليو العاشر مهمة إعادة تزيين أربعة غرف إلى البشوش الصغير رافاييل.

وفي بداية عام ١٥١٩م كانت قاعة قسطنطين آخر غرفة في هذه السلسلة المطلوب رسمها. وكان على رافاييل أن يبتكر الخط العام للرسومات، ويقدّم دراسات تفصيليّة ورسومات تحضيريّة لجزء على الأقل من المشهد الذي يصوِّر انتصار قسطنطين عند جسر موليفان. ولكن رافاييل مات في أوج موهبته وريعان شبابه عن عمر يناهز ٣٧ عامًا، ووقعت مسئوليّة رسم "معركة جسر موليفان" على جوليو رومانو الذي وَرَثَ من رافاييل تصميمات غير كاملة وأيضًا اتجاهات ورشة العمل الكبيرة التي أعدّها رافاييل قبل وفاته.

وبنهاية عام ١٥٢١م وتحت رعاية البطريرك الأرستقراطي والمثقّف (من عائلة ميديشي الإيطالية الثريّة) ليو العاشر، انتهَى جوليو من رسم أكثر من نصف الغرفة.

وقد توقَّف العمل بسبب وفاة البابا ليو، ولم يُنْجِز شيئًا خلال زمن أدريان السادس. وقد انتهَى العمل تمامًا في عام ١٥٢٤م مع اعتلاء بطريرك آخر عرش البابويّة وهو كلمينت السابع.

تصفُ المؤلّفات المعاصرة لهذا الوقت، الغرفة، كقاعةٍ كبيرةٍ للطعام. كما كانت تُستخْدَم كقاعة للمقابلات مع الزوّار من المسئولين الحكوميّين. وتُدعَى الآن قاعة قسطنطين وذلك لوجود أربعة مشاهد كبيرة على حوائطها تصف قسطنطين معتنقًا ومدافعًا عن الإيمان، وخاضعًا لسلطة الكنيسة.

وبالإضافة إلى رسومات "معركة جسر موليفان" والتي تُغطّي الحائط الأكبر في القاعة. هناك "رؤية قسطنطين" (على الحائط الأيسر، وهي لوحة بالألوان المائية)، وأيضًا "معموديّة قسطنطين"، و"هبة روما" (اللتان لا تظهران في اللّوحة).

ظهر قسطنطين كحاكمٍ علماني، عمل على تعايش سلمي مع الكرسي البابوي باعترافه بسيادة الكنيسة. ورؤية قسطنطين ومعركة جسر موليفان هي لوحات مناسبة جدًّا لغرفة يقابل فيها البابا كبار رجال الدولة.

كما أن اختيار مَلْحَمة قسطنطين لتتزيّن بها هذه الغرفة، ربما يعكس أيضًا اهتمام المقرّ البابوي عام ١٥١٩م باختيار إمبراطور روماني جديد يتحلّى بالقداسة ليخلف قسطنطين. وستذّكر اللوحات المائيّة الموجودة على جدران قاعة قسطنطين، الإمبراطور الجديد أو أي زائر من رجال الدولة بوضعه ومكانته في مقابل وضع ومكانة البابا.

تحلّت هذه اللوحات الجداريّة باهتمام رافاييل وجوليو رومانو الشهير بالدقّة والمطابقة المُتقنة للأحداث (كما ظهرت على الآثار).

إنّ تكوين مشهد المعركة الكبيرة يعتمد بشكلٍ مباشرٍ على التابوت الحجري الروماني الذي يُصوِّر مشاهد مماثلة في لوحة "رؤية قسطنطين"، حيث يتّخذ قسطنطين وضعيّة مطابقة لما كان يستخدمه النحّاتون الرومان واليونانيّون ليصوّروا الإمبراطور وهو يتحدّث إلى قوّاته.

وهناك تفاصيل مُحدّدة في الخلفيّة، على سبيل المثال ضريح هدريان، وهرم كايوس كيستوس (وكلاهما في خلفية لوحة "رؤية قسطنطين")، وكلاهما مقتبس من العملات القديمة. الغرفة بأكملها تُعطي إيحاءً بالأحداث التاريخيّة التي تمتد على جدران منقوشة أمامنا، وأمام الباباوات الذين جلسوا على كراسيهم في أركان هذه الغرفة. كما صوّر الباباوات على جدران قاعة قسطنطين الذين عاصروا قسطنطين، وآخرون من الأباطرة المسيحيّين القُدامَى.